لقاء مع المحقّق الكبير الأستاذ محمود شاكر

١٢ ديسمبر ١٩٨٣

كنت اليوم في «دار الشروق» حين أخبرني صاحبها الأستاذ محمد المعلم أنه ينوي القيام في الثامنة مساءً بزيارة لمحمود شاكر في منزله لتهنئته بفوزه بجائزة الملك فيصل في الأدب، وسألني عما إذا كنت على استعداد لمرافقته. وإذ كنت شديد التطلع إلى مقابلة محمود شاكر منذ قراءتي لكتابه الغريب «أباطيل وأسمار» والمقدمة الشيّقة لكتابه عن المتنبي، ولما أحمله من تقدير لجهوده الفذّة في تحقيق كتب التراث، وما أسمعه عن شخصيته القوية، وآرائه الفريدة، وضخامة تأثيره في دائرة المعجبين به، رغم حدّة طبعه، وسلاطة لسانه، فقد رحّبت بمرافقة المعلّم إليه، وإن خالط سروري شيء من الوجل والرهبة، والخشية من الاصطدام به إن كان قد قرأ بعضاً من مقالاتي في مجلة «المصور» أو كتابي «دليل المسلم الحزين».

وتذكرت ونحن في الطريق إليه حديثاً كان قد دار منذ نحو عام بيني وبين صاحب مكتبة «وهبة» بعابدين.. قصدت المكتبة لشراء الطبعة الجديدة المنقّحة من كتاب ابن سلام «طبقات فحول الشعراء» الذي حقّقه شاكر. وإذ دخلت مع وهبة في حديث عبّرت خلاله عن إعجابي بشاكر كمحقّق، سألني عما إذا كنت أعرف الرجل شخصياً، فأجبت بالنفي. فإذا به يتمتم وهو يبتسم:

ــ أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.

وسألته مندهشاً: كيف؟ أتعرفه شخصياً؟

ـ قضينا فترة في السجن في زنزانة واحدة خلال حكم جمال عبد الناصر. وكنت شديد الإعجاب به قبلها، فلما عاشرته إذا هو أثقل الناس وطأة، وأقلّهم أدباً ومراعاةً لمشاعر الآخرين. . كنت على استعداد بسبب تقديري العظيم له لأن أكون خادمه في الزنزانة. غير أنه تقبّل خدمتي له كأمر طبيعي، وعاملني معاملة الخادم الأجير.

ـ أيّ نوع من الشخصيات هو؟

ـ فظّ، فظّ، فظّ! وفي ظنّي أن مفتاح شخصيته يكمن في إحساسه العميق بالفشل رغم ثقافته الأصيلة، ومواهبه الجمة، وشعوره بأن حياته قد ضاعت سُدى في حين كان مؤهلاً لأن يكون أكبر كاتب في العالم العربي. هذا الإنسان الضخم الذي حصّل من الثقافة الإسلامية ما لم يحصّله غيره ولن يحصّله غيره، ماذا أنتج؟ كتاب عادي عن المتنبي كتبه في صباه، وديوان شعر هزيل ضحل، وكتاب ضخم في هجاء لويس عوض، ثم تحقيق لبعض كتب التراث. أهذا إنتاج خليق برجل مثله؟ أهو إنتاج يؤهّله لأن يشغل مكانة رفيعة في حياتنا الأدبية؟ لقد كان مؤهّلاً لأن يعطي الكثير. غير أنه لم يفعل. وإحساسه بقدراته مع عجزه عن ممارستها جعلا منه إنساناً حقوداً مُرّاً فظّاً لا يطيق أن يرى غيره ينتج ويحرز الشهرة كطٰه حسين مثلاً الذي لم يحصّل جزءاً من المائة من ثقافة محمود شاكر. وكانت النتيجة أنه راح يدور كالثور الهائج يهاجم ويطعن، ويسبّ ويلعن، وينسب المسؤولية عن فشله وقلة إنتاجه إلى آخرين، وعلى رأسهم طٰه حسين. . إنه، بكل تأكيد، المثل الكلاسيكي لمرارة الفشل.

ـ أهي حالة شبيهة بحالة زكي مبارك؟

ـ لا يا سيدي. مرارة الفشل تجمع بين الرجلين، كما تجمع بينهما كراهية طه حسين والميل إلى إلقاء المسؤولية عليه. غير أن الفشل في حالة

زكي مبارك كان فشلاً في نيل الجاه والثروة والمنصب الرفيع، وهو في حالة محمود شاكر فشل في الإنتاج. وهو الآن وقد جاوز السبعين وبدأت قواه تضعف ونظره يذهب، كلما لمس من الناس إعجاباً وتقديراً زاده ذلك التقدير ثورة ومرارة وهياجاً إذ يزيد من إحساسه بأنه أضاع حياته هدراً ولم ينتج ما كان بوسعه إنتاجه من مؤلفات تهزّ الحياة الفكرية عندنا هزّاً... إنني لا أحب لويس عوض، وأشارك محمود شاكر رأيه فيه. ولكن قارن بالله عليك بين حجم إنتاج لويس وحجم إنتاج شاكر، بين نشاط لويس وتوهّجه وكسل شاكر وقعود همّته، بين تأثير هذا في حياتنا الثقافية وتأثير ذاك...

* * *

وصلنا إلى الشقة ففتح لنا بابها شاب دميم شديد الأُدمة، يرتدي جلباباً، حسبته الخادم حتى حيّاه محمد المعلم تحية حارّة وناداه باسمه «فهر»، فأدركت أنه ابن ربّ الدار. ودلفنا مباشرة إلى الصالة، فإذا بمحمود شاكر وأم فهر وابنته وزوج ابنته وقد اجتمعوا حول جهاز التيليفزيون يتابعون إحدى حلقات تمثيلية مسلسلة. وقد كانت صدمة لي أن أرى هذا العملاق المخيف جالساً أمام التيليفزيون يضيع وقته بمراقبة تمثيلية غَثَّة. غير أنه ترك مقعده أمام الجهاز عنْ طيب خاطر، واصطحبنا إلى صالون صغير ملحق بالصالة. وإذا اعتذرنا له عن قدومنا في وقت غير مناسب ودعوناه إلى إكمال مشاهدة التمثيلية، تظاهر ضاحكاً بعدم المبالاة بتفاهات التيليفزيون.

هنّأه المعلم بجائزة الملك فيصل، وكان واضح السرور بها. وعندما عرّفته بنفسي لم ألحظ في وجهه أيّ رد فعل، فأيقنت أنه لم يقرأ شيئاً من كتاباتي، كما رجّحت ـ بسبب فتور ترحيبه بي ـ أنه لم يكن على علاقة طيبة بأبي... ثم بدأنا نتحدث عن الجائزة، فقال شاكر في مرارة إنه رغم أهميتها العظمى، ورغم أنه شرف عظيم لمصر أن تُعطَى الجائزة لأحد أبنائها، لم تتحدّث أيّ من الصحف أو المجلات المصرية ولو في سطر واحد عن فوزه

بها، وهو ما ارتآه دليلاً قاطعاً على أن ثمة مؤامرة حكومية ضدّه. غير أن محمد المعلم نفى أن يكون الإغفال مقصوداً، ونسبه إلى قصور من صحافتنا في تغطية الأخبار. ثم قال:

ـ سأتّصل الليلة بأحمد بهجت في الأهرام وأطلب منه أن يكتب مقالاً في الموضوع في الصفحة الأدبية.

قالها بلهجة الواثق من أن أحمد بهجت لا بدّ ممتثل للأمر، وكأنه موظف عنده في «دار الشروق». غير أن هذا لم يكن مفاجأة لي. فأنا أعلم أنه هو الذي طلب من بهجت أن يكتب مقالين في الأهرام في الإشادة بكتابي «دليل المسلم الحزين» وقت صدوره عن الدار، وأن إبراهيم المعلم هو الذي طلب من بهجت أن يكتب مقالات يهاجم فيها سياسة الحكومة حيال تصدير الكتاب المصري، وسياسة مدير الجمارك بصدد استيراد مستلزمات الطباعة، مما يسبّب ضيقاً شديداً لدار الشروق.

ـ هيهات يا سيدي، هيهات! أليس كافة موظفي الأهرام من تلاميذ حسنين هيكل، ذلك الذّنب الأكبر للاستعمار الغربي؟.. وعلى أيّ حال فإن رسالة الأهرام هي هي لم تتغير منذ كان يرأس تحريرها تقلا الذي بصق في وجه أحمد عرابي.. هي عملية الاستعمار منذ عهد تقلا إلى عهد إبراهيم نافع.

ثم شرع يتحدث عن كيف أن لويس عوض، بعد صدور «أباطيل وأسمار»، شعر بأن من واجبه إزاء فداحة الاتهامات التي وجّهها شاكر إليه، وعجزه عن الردّ عليها، أن يتقدّم باستقالته من الأهرام إلى حسنين هيكل، غير أن هيكل رفض قبولها، وأصرّ على أن يواصل لويس عمله وكتاباته في الصحيفة.

ثم قال موجّهاً الحديث إلى المعلم:

ـ أتحسب أن أحداً من زملائي الأفاضل أعضاء المجمع اللغوي خطر

في ذهنه أن يهنئني على فوزي بالجائزة؟ لا يا سيدي. بل إن منهم من بلغت به القحة حدّ الاستهزاء أمامي بقيمتها الأدبية. غير أني لم أعبأ بالردّ أو المعاتبة، إذ ماذا عساي أن أتوقع من أناس كهؤلاء؟

ولاحظ المعلم أن شاكراً لم يوجّه إليّ كلمة منذ أن استقرّ بنا المجلس، ولا يكاد يلتفت إليّ بوجهه أثناء حديثه، فحسب أنه لم يسمع إسمي واضحاً حين عرّفته بنفسي. فانبرى يقول:

ـ الأستاذ حسين أمين هو ابن أستاذنا المرحوم أحمد أمين.

قال شاكر: أعرف ذلك.

ـ وقد نشرنا له مؤخراً كتاباً بعنوان «دليل المسلم الحزين» أحرز نجاحاً عظيماً. سأرسل إلى سيادتك في الصباح نسخة منه.

فإذا بمحمود شاكر يشير بذراعه إلى الباب المفتوح لغرفة مكتبه (إشارة إلى أن الكتاب موجود بها)، ويتمتم قائلاً:

ـ قرأتُه!

قلت في دهشة:

ـ قرأتَ سيادتك «دليل المسلم الحزين»؟

ـ أيوه يا سيدي!

ـ وما رأيك فيه؟

ـ فَوِّت! (أي لا داعي للحديث عنه).

ـ إسمح لي بأن أصرّ على سماع رأيك مهما كان.

اعتدل في مجلسه ليواجهني، ثم قال:

ـ أتحسبني غافلاً يا سيد حسين عما تفعله؟ أتحسبني غافلاً عن نواياك وخططك من وراء مقالاتك في «المصور» أو كتابك هذا؟ لا يا سيد حسين! لا أنا بالغافل ولا أنا بالأبله حتى أسمّيك كما أسماك عبد العظيم أنيس منذ

أسبوع في «الأهالي» بالكاتب الإسلامي المستنير. ما معنى «الإسلام المستنير» بالله عليك؟ أهناك إسلام مستنير وإسلام غير مستنير، أم أن الإسلام كله نور ومن لم يستنر به لا يجوز وصفه بأنه مسلم؟.. الكاتب الإسلامي المستنير حسين أمين! محمد عمارة! فهمي هويدي! حسن حنفي!! دعني أقول لك إن كل ما تكتبونه هو عبث أطفال. نعم، مجرد لعب عيال! كلكم أطفال.. يقرأ أحدكم كتابين أو ثلاثة فيحسب نفسه مجتهداً ومؤهلاً للكتابة عن الإسلام والإصلاح والاستنارة!.. محمد عمارة هذا تبلغ به الصفاقة والادعاء والجهل مبلغاً يجعله يصف كتاب محمد عبده «رسالة التوحيد» بأنه من أهم ما كتب في التراث الإسلامي في علم الكلام! لا يا شيخ؟!! هل قرأت يا سيد عمارة كل ما كُتب في التراث الإسلامي في علم الكلام ثم وصلت إلى اقتناع بأن هذا الكتاب الهزيل الحقير الغثّ لمؤلفه ضحل الثقافة، من أهمّ الكتب في الموضوع؟! ما هذا العبث وهذا الاستغلال لجهل الناس؟! لا.. الأمر أخطر من ذلك.. إنها مؤامرة!

ـ مؤامرة؟

ـ مؤامرة تستهدف تمجيد رجلين من أخطر عملاء الاستعمار في تاريخ أمة الإسلام: جمال الدين الأفغاني الماسوني، ومحمد عبده الصديق الصّدوق لكرومر.

ودخلت زوجته السمينة، بعد انتهاء التمثيلية، تدور علينا بأكواب الشاي. فرشف شاكر من كوبه رشفة بصوت هائل، ثم عاد يتمتم:

ـ نعم. تبدو مندهشاً. غير أني قائل لك إن المسؤولية عن معظم ما يعاني منه الإسلام اليوم تقع على عاتق هاذين الخبيثين، خاصة الأفغاني الذي هو أُسّ الفساد كله.. وقد تعجبان إن قلت لكما إنني متفق مع لويس عوض في الرأي بأن الأفغاني كان مجرد متآمر وأنه لم يكن صحيح الإسلام.

وعلى أي حال فإن رأي لويس ليس جديداً، وكل هذه الأمور كانت معروفة عن الأفغاني حتى أثناء حياته.

وبدا محمد المعلم نفسه مذهولاً، رغم صلته الوثيقة القديمة بشاكر. فكان أن خيّم علينا الوجوم، وساد المجلس سكون لم يقطعه غير صوت احتساء رب الدار لشايه وقد بدا غير عابىء بما أصابنا.

ـ ألف حسرة على العالم الإسلامي وأمة الإسلام!. جهل مطبق بالفكْر الإسلامي وبالتاريخ الإسلامي.. تدهور رهيب في اللغة العربية.. نظم التعليم في مدارسنا غربية محضة.. حتى الجماعات المسماة بالإسلامية قد ألقت بتراث أربعة عشر قرناً في صندوق القمامة.. نعم. ولكنهم ينبرون للتهليل لإسلام جارودي وكأنه حدث هام في تاريخ الإسلام، وذلك لمجرد أن هذا الأفّاق الإنتهازي نطق أمامهم بالشهادتين وأثنى على الإسلام في كتب له كلها أخطاء وكُفر ومغالطات.. وبعضهم يهلّل للخميني والثورة الإيرانية والإثنا عشرية، وما منهم من يدري أن الإثنا عشرية هم غُلاة الشيعة لا معتدلوها كما يزعمون، وأن الخميني كافر زنديق.

ـ كافرٌ زنديق؟

ـ بالتأكيد.. ألم يقل بتحريف القرآن وتزنية عائشة؟

قلت: إزاء فرحة اتهامك للأفغاني ومحمد عبده، سأكون شاكراً لو فصّلت لنا الأمر.

ـ وسأكون أنا شاكراً لو غيّرت الموضوع.

ـ وهو كذلك.. هل لي أن أسألك سؤالاً يحيّرني منذ مدّة؟

ـ قل.

ـ ما السبب يا تُرى في قلة إنتاجك مع غزارة علمك؟

امتقع وجهه امتقاعاً شديداً لسؤالي، وخُيّل إليّ لأول وهلة أنه في سبيل أن يسبّني سبّاً غليظاً. غير أنه سرعان ما تمالك نفسه وقال في هدوء:

ـ لماذا توقفتُ عن الكتابة بعد صدور كتابي عن المتنبي؟ أقول لك بكل بساطة يا سيد حسين إنني خشيت على نفسي من أن يصيبني الغرور. لقد كتبت «المتنبي» في أيام الحداثة، ووصلني بعد صدوره أكثر من ثمانين رسالة تثني عليه وترفعه إلى السماء. وظللت مدة لا تكاد الدنيا تسعني من النشوة والزهو، إلى أن أفقت لنفسي. أفقت لنفسي وقررت التوقف عن الكتابة. بالضبط كما فعل الشاعر علي محمود طه ولنفس السبب... الكتابة لا تهمني وإنما تهمني نفسي وتقويم ذاتي.. وكان أن انصرفت إلى تحقيق الكتب القديمة وبذلت كل جهدي وطاقتي في أن يكون التحقيق غاية في الدقة والإتقان.

ـ غير أنك توقفت عن إكمال تحقيقك لتفسير الطبري..

قال في ضيق وهو يتململ في مقعده:

ـ نعم. لأن الناشرين معظمهم لصوص.. لا تؤاخذني يا محمد بك! ولأن الناس لم تعد تقرأ.. فإن قرأوا فليست الكتب الجادة هي التي يقرأونها، وإنما يقرأون لأنيس منصور، ومحمود السعدني، ومحمد عمارة..

ـ وحسين أمين.

ـ وحسين أمين!

ـ هل لي أن أسألك عن علاقتك بوالدي كيف كانت؟

ابتسم ابتسامة خبيثة ثم قال:

ـ فوِّت!

ـ لا يا أستاذ شاكر لن أُفوِّت!

ــ لم أكن أحبّه.

لحظة صمت.

ــ ولم؟

ــ ما كلّ هـذه الأسئلة المحرجـة؟ تريـد أن تعرف لمـاذا لم أكن أحبه؟ حسناً. لم أكن أحبه لأنه كان رجلاً خبيثاً داهية.

ــ لم يكن ثمة رجل أطيب قلباً ولا أبسط من أبي.

وانفجر شاكر ضاحكـاً. ولدهشتي البـالغة إذا بمحمـد المعلم هو أيضـاً يشاركه الضحك لقولي إن أبي كان طيب القلب.

قال المعلم:

ــ لا تؤاخذني يا حسين بك، ولكن المرحـوم أحمد أمين لم يكن طيب القلب على الإطلاق، ولا كان رجلاً بسيطاً.

ــ كيف؟ كيف؟

قال شاكر:

ــ لن نخوض في هذا الأمر.. عبد الـوهاب عـزام، على عيوبـه، كان رجلاً طيباً بسيطاً، أما أحمد أمين فلا. ولكنه على أي الأحوال لم يكن في خبث طٰه حسين ودهائـه ومكره.. غيـر أن ما أعيبـه حقيقة على أحمـد أمين هو أنـه وهو الرجل العالم المثقف الذي كان بوسعه أن يقـدّم فكراً جـديداً مبتكـراً في ميـدان الدراسـات الإسلاميـة، والذي يَجُبُّ علمُـه علمَ كـافـة المستشـرقين، استسلم وأذعن لتـأثيـر طٰه حسين وآرائـه، ووقف مـوقفـاً ذليـلاً من أحكـام المستشـرقين الخبثاء الحـاقدين على الإسـلام، وتبنّى في كتبه فجـر الإسـلام وضحاه وظهره هذه الأحكام، دون أن يجـرؤ على تفنيدهـا والتّصدّي لهـا... ما هذا الذُّلّ، وهذه الاستكانة، وهذا الضعف، سواء منك أو من أبيك، تجـاه المستشرقين الغربيين؟ أهم أدرى بتراثنا وأقدر على إصدار الأحكام بصدده من

علمائنا نحن الذين نهلوا من هذا التراث مع لبن أمهاتهم ونشأوا عليه منذ نعومة أظفارهم؟ كيف يكون من حق «خواجة» بدأ في تعلم العربية في سن العشرين أو الثلاثين، ويظل «يتهته» بها إلى أن يموت، أن يُدلي برأي في المعلقات السبع، وأن يصدر حكماً على المتنبي أو أبي العلاء؟ كيف تسوّغ لمسيحي صليبي نفسه أن يتحدّث عن الأشاعرة أو المعتزلة حديث الواثق المطمئن لمجرد أنه قرأ كتابين أو ثلاثة في الموضوع؟ أيجوز لي، وأنا العربيّ، مهما بلغ إتقاني للغة الإنجليزية والأدب الإنجليزي أن أؤلف كتاباً عن تشوسر شبيهاً بذلك الذي كتبه بلاشير الفرنسي عن المتنبي؟ هل أسمح لنفسي، وأنا المسلم، أن تبلغ بها الصفاقة والغرور حدّ الكتابة عن دقائق الاختلاف بين المذاهب المسيحية؟ كيف يمكن لعالم إسلامي فذّ كأحمد أمين أن يقع في فخّ هؤلاء الصليبيين؟ الأمر في حالة طه حسين أيْسر فهماً؛ فهو لم يقع في الفخ، وإنما قرّر باختياره الحرّ أن يشارك الصليبيين في نصف الأفخاخ لبني قومه ودينه. أما أحمد أمين، بالرغم من ذكائه وعلمه وصدق إسلامه، فقد وقع «زيّ الشاطر» في خبائل الشيطان.

ثم استطرد يقول:

ــ كلّمني هذا الصباح المدعو مارسدن جونز الأستاذ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، يريد أن يجتمع بي.. رفضت، وقلت له إنني لا أريد أن أجتمع به. أتسمع عن مارسدن جونز هذا؟

ــ محقّق كتاب «المغازي» للواقدي.

ــ آه! حتى أنت قد صدّقت هذه الأكذوبة كسائر الناس.. مارسدن جونز لم يحقّق مغازي الواقدي ولا بذل فيه إلا أضعف الجهد. وهذا هو السبب في أني رفضت مقابلته. فقد حدث يوماً أن جاءني رجل مصري «غلبان» إسمه عبد الفتاح الحلو، وأخبرني أنه هو الذي حقق كتاب المغازي من أوّله إلى آخره بناء على تكليف من مارسدن جونز ومقابل بضعة جنيهات كان في حاجة ماسة

إليها، ولم يظهر إسمه على الغلاف لا باعتباره محققاً ولا حتى باعتباره مشتركاً في التحقيق، واكتفى جونز بالإشارة إليه في المقدمة باعتباره أحد الذين قدموا له العون أثناء تحقيقه للكتاب!! هذا مجرد مثل لأخلاقيات هؤلاء المستشرقين الذين تغنّى والدُك بفضلهم!

ـ وما الذي مال بك إلى تصديق زعم عبد الفتاح الحلو دون تصديق زعم مارسدن جونز أنه محقق الكتاب؟

قال شاكر في ضيق وهو يتململ في كرسيّه مؤذناً بانتهاء الجلسة:

ـ الذي مال بي إلى تصديق زعم الحلو يا سيد حسين هو معرفتي بأخلاقيات المستشرقين.. بالمر، جيب، ماسينيون، مرجوليوث، شاخت، كلهم خنازير استعماريون. وإني لأردّ على كل عربي يتحدّث عن فضل هؤلاء سواء في تعليمنا المنهج العلمي في تحقيق التراث أو في كتابة التاريخ. أو غير ذلك، بأن المسلمين هم الذين خرجوا على الدنيا في عصرهم الذهبي بالمنهج العلمي في التأليف، وهم الذين ابتدعوا وضع الفهارس للكتب لا الغربيون كما يدعون..: لقد وضعت بنفسي فهارس كتاب المقريزي «إمتاع الأسماع» الذي حققتُه، فوصلتني رسالة من مستشرق فرنسي شهير يُبدي فيها انبهاره بروعة هذه الفهارس، ويقول إنه ليس بوسع أي غربيّ أن يأتي بمثلها.. فالمسألة إذن ليست مسألة فضل، وإنما هي تتعلّق بخيبة المسلمين المحدثين حيال تراثهم.. كل الأمور معنا تسير من سيء إلى أسوأ؛ في الثقافة، والسياسة، والاقتصاد، والأخلاق، أو ما شئت.. والله سبحانه وتعالى إنما يعاقبنا على ما نرتكب وما نهمل، وهو على كل شيء قدير.

وتحرّك في مقعده حركة من يهمّ بالوقوف، فنهضنا على الفور للإنصراف.

ـ بدري يا جماعة!

وكرّر محمد المعلم عند باب الشقة وعده بأن يتصل بأحمد بهجت حتى يكتب عن الجائزة. قال شاكر:

ـ لا تتعب نفسك... لن ينشروا شيئاً. إنها مؤامرة يا صـديقي، وعزم قاطع من جانب السلطة على ألا يُذكر إسم العبد الفقير في الصحف والمجلات لا بخير ولا بشرّ حتى ينسى الناس وجودي.. لا بأس.. لا بأس.. شرّفتم... خطوة عزيزة.

وعاد المعلم يهنّئه بالجائـزة. غير أني حين حـاولت أن أحذو حـذوه لم يطاوعني لساني.